
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

فى ظل شجرة الحوار

يـسمينا سوپوفا *Jasmina Sopova

الحوار هو مؤسسة أفريقية تقليدية للمناقشة والإجماع، والتى حجبت إمكاناتها الديمقراطية بالأنظمة السياسية الحديثة.

أحيانا تكون المناقشات الطويلة ضرورية قبل التوصل إلى إجماع. وهذا اجتماع للقرية فى السنغال.

فى أوائل القرن السابع عشر، بذل أحد المبشرين الكاثوليك البرتغاليين، وهو «الأب ماريانو» جهودا مضنية لتحويل الناس فى مملكة ساهاديا الصغيرة، على الساحل الغربى لمدغشقر شمال «موروندافا» فى الوقت الحالى، إلى الدين المسيحى. إلا أنه رغم الحملات الطويلة للمنطقة، لم ينجح فى ذلك.

وأحد الأسباب الرئيسية لهذا الفشل، كما لاحظ فى أحد خطاباته، هو النظام السياسى للمملكة. فقد كتب يقول، «حتى لو كان الملك له بعض السلطة على الأقل، كان يمكن أن نأمل فى النجاح. ولكن الملك يتحكم فقط فى المنطقة حول بلده، وهو فقير، ولا يخشاه أحد، ورعاياه يفعلون ما يشاءون بدون أن يجرؤ على الشكوى. وفى الحقيقة إن الناس يكونون نوعا من الجمهورية.. فعندما يظهر أى موضوع محلى كبير، يجتمع كل الناس فى مجلس لمناقشته».

كان الأب ماريانو يتكلم عن «الفوكونولونا»، وهو تقليد عتيق، عاش بدرجة ما فى «مدغشقر» حتى هذا اليوم (انظر رسالة اليونسكو، مارس ١٩٩٩).

ولكنه موجود أيضا فى أماكن أخرى فى أفريقيا، حيث يعرف بشجرة الحوار.

وشجرة الحوار وهى مؤسسة هامة اجتماعية سياسية فى أفريقيا فيما قبل الاستعمار، هى اجتماع يتم فيه مناقشة عدد من المسائل بحرية، وتتخذ فيه قرارات هامة خاصة بالمجتمع. والغرض منه هو تسوية صراعات مستترة ومكشوفة فى بعض المواقف المعينة الخاصة جدا. والمشاركون يتجمعون فى العادة تحت «شجرة الحوار» حيث لكل فرد الحق فى الكلام والإفصاح عن مظلمته أو مظالم جماعته. وقد يختار الشاكى أن يمثله الراوى (شاعر وراوٍ ومغنٍ تقليدى) أو أى متحدث آخر.

ووضع النساء فى هذه الاجتماعات، التى يحاول فيها كبار السن الوصول إلى إجماع، يختلف من منطقة إلى أخرى. ففى بعض الشعوب تشترك النساء بنشاط فى اتخاذ القرار. وبين شعوب أخرى يجلسون خارج الاجتماع لتقديم المشورة لرجالهن.

وأحد أشكال شجرة الحوار هو «الديبو» debo الأثيوبى، وهو نظام للمعونة المتبادلة حيث يجتمع رجال الجماعة معا لمساعدة أحد الجيران («الأبا ديبو»، والد الديبو) على القيام بعمل كبير. وتختار المجموعة قائدا، والذى يعين بدوره «واليا» Walle ليقوم بالمحادثة. ويجب أن يكون فصيحا وصوته جميل لأن عمله هو أن يقود الغناء أثناء القيام بالعمل، ويختار الكلمات المشجعة فى الأعمال الشاقة بشكل خاص. وهو يدافع أيضا عن مصالح العمال أمام «الأباديبو» ويخبرهم بالنتيجة.

مشاركة أوسع من جانب النساء

وتعمل اجتماعات الحوار بأشكال مختلفة، على سبيل المثال لتتداول حول زواج أو صفقة، أو لتسوية نزاع، أو للنظر فى ظروف جريمة، ثم تقرير كيفية البحث عن الجانى وعقابه. ولكن المبادئ الأساسية لا تتغير. فهذه واحدة من المؤسسات الديمقراطية للمجتمعات الأفريقية التقليدية، والتى يشعر الكثير من المفكرين الأفريقيين أنها يمكن أن تستخدم أثناء الانتقال للنظام السياسى الحديث، اذا ما فتحت نفسها أكثر للنساء.

فى سيرته الذاتية «المسيرة الطويلة نحو الحرية»، يؤكد الرئيس نيلسون مانديلا من جنوب أفريقيا على الدور الذى أدته هذه الاجتماعات بالنسبة لمستقبله السياسى. فقد كتب يقول، «إن أفكارى التى جاءت فيما بعد عن القيادة تأثرت بعمق بملاحظة الحاكم وبلاطه. لقد كنت أراقب وأتعلم من الاجتماعات القبلية التى كانت تعقد بانتظام فى الميدان الكبير... إن كل واحد كان يريد أن يتكلم كان يفعل ذلك. لقد كانت الديمقراطية فى أنقى صورها. من الجائز أنه كان هناك تدرج فى الأهمية بين المتكلمين ولكن الجميع كانوا يُسمعون.... وكقائد، فقد اتبعت دائما المبادئ التى رأيتها فى البداية عندما كانت تتمثل فى الحاكم فى الميدان الكبير».

إلا أن السياسيين الأفريقيين يهملون مثل هذه المؤسسات باعتبارها عتيقة. والقادة الأفريقيون «يميلون إلى عدم الثقة فى اجتماعات الحوار ويفضلون هيكلا قانونيا سطحيا مستوردا مباشرة من الغرب»، كما يقول الفيلسوف الكاميرونى «چان جودفرى بيديما».

منذ الاستقلال السياسى فى الستينيات، تشجع النخب الأفريقية الشابة المدربة على الأساليب الغربية «البيضاء» تبنى النماذج الغربية، بما فى ذلك المجموعات القانونية التى لا تتناسب بدرجة كبيرة مع الظروف الأفريقية. وحتى فى الوقت الحالى، يجد الريفيون الأفارقة أنه من الصعب جدا قبول أن تطغى «عادة» من الخارج على العادات المقدسة الموروثة من أجدادهم.

«هذا هو السبب الذى يجعل شعوب الغابات لايأتون بمظالمهم إلى المحاكم (التى توجد فقط فى العاصمة) ويفضلون أن يسووا خلافاتهم باستخدام الأنظمة التقليدية»، كما يقول العالم الأثيوبى «بسيات كيفلر سيلاسى»(1). «إن المؤسسات الحديثة المزعومة فى أفريقيا مثل مستحضرات التجميل على وجه سيدة عجوز، إنها تجمل فقط السطح. إنها مثل محاولة لتحديث مبنى بتنظيف الواجهة وعدم عمل شىء لتجديد الداخل».

وهكذا فى أفريقيا حيث، كما قال العالم المالى «هامياتى با» ذات مرة، «عوالم مختلفة، وعقليات مختلفة وعصور مختلفة مركبة فوق بعضها»، فإن شجرة الحوار هى «نوع من السلطة الموازية». ومالى هى البلد الأفريقى الوحيد الذى أدمج هذا الشكل فى نظامه السياسى الحديث. ■

(1) محرر «الإجماع والسلام»، اليونسكو ١٩٨٠، ومؤلف دراسة عن «شجرة الحوار فى أثيوبيا» نشرت فى مجلة اليونسكو الربع سنوية «ثقافات»، مجلد ٤، عدد ٣، ١٩٧٧.

* صحفية فى رسالة اليونسكو.